صورة المرأة في شعر عبد السلام بن رغبان (ت 235هـ) دراسة تحليلية

م. د. بشرى سلام عبد الرضا
كلية التربية الاساسية / الجامعة المستنصرية / قسم اللغة العربية
bushrasalam@uomustansiriyah.edu.iq
07702992256

الملخص
يستعرض هذا البحث صورة المرأة عند شاعر عباسي يعد من أشهر شعراء عصره وعرف بجرأته في التعبير عن الحب، وتطرق الى موضوعة المرأة من زوايا مختلفة تجمع بين التقديس والادامة وبين العشق والغضب، الا وهو الشاعر عبد السلام بن رغبان الملقب بـ (ديك الجن الحمصي)، ناقش البحث صورة المرأة على مر العصور بدءاً من العصر الجاهلي وانتهاءً بالعصر الحديث، وبحث في صورتها كأم وزوجة وحبيبة، إذ شكل حضور المرأة في شعره محوراً أساسياً فلم يكتفِ بوصف جمالها بل نفذ الى اعماق نفسها كاشفا عن مشاعر الحب والغيرة والخيانة، تلك المخلوقة التي مثلت رمز الجمال والاغواء حبيبته وزوجته (ورد)، وقد عالج البحث أيضا الصور الحسية عند الشاعر بما فيها – البصرية والسمعية – التي تعد من أظهر سمات تجربته الشعرية وتمثل جانباً مهماً من تفرده بين شعراء عصره، تلك الصور التي جمعت بين المتعة الجسدية والحسرة النفسية ما جعله واحدا من أكثر شعراء العصر العباسي إثارةً للجدل والاهتمام .

الكلمات المفتاحية: صورة المرأة ، الشعر العباسي ، ديك الجن ، الصور الحسية.

The Image of Women in the Poetry of Abd al-Salam ibn Raghban (dead. 235 AH) An Analytical Study

Lecturer Dr. Bushra Salam Abdul-Ridha
College of Basic Education / Al-Mustansiriya University / Department of Arabic Language
bushrasalam@uomustansiriyah.edu.iq
07702992256

Abstract
This research examines the image of women in the poetry of an Abbasid poet, one of the most famous poets of his time and known for his bold expression of love. The poet, Abdul Salam bin Raghban, nicknamed "Deek Al-Jinn Al-Himsi," addresses the subject of women from various perspectives, combining sanctification and perpetuation, passion and anger. The research discusses the image of women throughout the ages, starting from the pre-Islamic era to the modern era, and examines their image as mothers, wives, and lovers. The presence of women in his poetry is a central theme. He not only described their beauty, but also penetrated the depths of their souls, revealing feelings of love, jealousy, and betrayal. This creature represented a symbol of beauty and seduction, his beloved and wife (Ward). The research also addresses the poet's sensory images, including visual and auditory images, which are among the most prominent features of his experience. Poetry represents an important aspect of his uniqueness among the poets of his time. These images combined physical pleasure with psychological anguish, making him one of the most controversial and interesting poets of the Abbasid era.

Keywords: The image of women, Abbasid poetry, the rooster of the jinn, sensual imagery.

تقديم :

يقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه وحي القلم ((المرأة عقل وروح وبيان، إذا سمت سمت الحياة وإذا سقطت سقطت الأمم))، واستناداً إلى هذه المقولة فإن المرأة تمثل ركيزة أساسية في تكوين المجتمع واستقراره وهي ليست تابع للرجل أو نصف المجتمع كما يقول البعض، بل هي الأم والحبيبة والزوجة والمربية والملهمة، وقد أدرك الأدباء ولاسيما الشعراء منهم منذ القدم هذه الحقيقة فجعلوا من المرأة جوهراً انسانياً وشعرياً لا يستغنى عنه، فكثير من دواوين الشعراء كتبت من ألم فراقها أو لذة وصالها أو حنين غيابها، ومثلما هو معروف أن الحب بأشكاله المختلفة أساس العلاقات الإنسانية بين البشر وهو العاطفة التي نشعر بها اتجاه أولئك الذين ترتبط حياتنا بهم، إذ إن ((تبادل الحب بين الرجل والمرأة شعور متأصل فيهما بالفطرة، والعرب شأنهم شأن أية أمة أخرى لمس هذا الشعور قلوبهم فكان الشعر والنثر ميداناً رحباً لتصويره)) (سلام، 2016، صفحة 136)، وشاعرنا عبد السلام بن رغبان المعروف بـ(ديك الجن) عرفت قصته في التراث العربي وعدت من أشهر القصص المأساوية التي تبين كيف يمكن للغيرة أن تقود إلى نتائج مؤلمة، ومن كل ما تقدم نشرع في كتابة بحثنا الموسوم بـ(صورة المرأة عند الشاعر عبد السلام بن رغبان – دراسة تحليلية)، متبعين في ذلك منهجاً تحليلياً عن طريق فهم النصوص بتفكيك عناصرها ودراسة العلاقة بينها لتفسيرها وتقييمها على وفق ذلك المنهج، وقد استقر البحث على مبحثين الأول تضمن صورة المرأة في شعر عبد السلام بن رغبان والمبحث الثاني تطرق إلى الصور الحسية عند الشاعر، وقد سبق المبحثان بتمهيد عنوانه المرأة في الشعر العربي على مر العصور، فضلاً عن نبذة موجزة من حياة الشاعر ونشأته وقد ختم المبحث بأهم النتائج التي توصلت اليها الدراسة وأخيراً قائمة بالمصادر التي اعتمدت في كتابة البحث.

(المرأة في الشعر العربي)

تمهيد :

تختلف صورة المرأة في الشعر العربي منذ القدم إلى يومنا هذا، ولا يخفى على باحث أو مهتم بالأدب العربي ما للمرأة من منزلة في نفوس الشعراء العرب، كونها استطاعت ان تحتل مساحة واسعة من أشعارهم وكيف تمكنت من الاستحواذ على اهتمامهم في الكتابة عنها والتغني بها، فكان لها نصيب كبير مما كتبوه من نتائج شعري على مر العصور، وكتب التراث الأدبي خير شاهد على ذلك، إذ تزخر بالأشعار التي قيلت في المرأة من مختلف الشعراء باختلاف عصورهم بدءاً من العصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الحديث، نظراً لتعدد الأدوار التي تقوم بها اجتماعياً وأسرياً مجسدين سماتها وخصالها ومكانتها في المجتمع الذي بحثا به ونظرته اليها بشكل عام، فضلاً عن بيان دورها في الساحة الأدبية والمعرفية، فتملكت عواطفهم، وأضحت المرأة مصدر إلهام للشاعر العربي في الكتابة عنها ورسم صور مختلفة لها، فضلاً عن وصف محاسنها ومفاتن جسدها.

ولو نظرنا إلى صورة المرأة في العصر الجاهلي فإننا نجد أن المرأة هي الصوت المدوي منذ ذلك العصر، فعلى الرغم من أنها كانت ((تابعة للرجل يوجهها الوجهة التي يريدها حتى يعظم أمرها ويعلو شأنها وتستطيع أن توجه الرجل ذاته)) (الاطرقجي، 2002، صفحة 18) كما يقول البعض إلا أن وجودها في ذلك العصر كان له أثر بالغ الأهمية، فدورها لم ينحصر في البيئة الاسرية فقط ((بل إنه يمتد ليشمل مكانة قوية وفاعلة بين أفراد قبيلتها، فإذا وقفت في وجه الرجل استطاعت أن توصل صوتها وأن تعزز مكانتها التي تبرهن على قدرتها ... في إرساء مبدأ الثورة الاجتماعية والفكرية والنفسية)) (جابر، 2018، صفحة 157)، بعد تعرضها إلى الضعف والامتهان وخاصة في مسألة الزواج من الرجل، ومع هذا فإننا نجدها تفوقت في مجالات كثيرة، وقامت بأدوار عدة مثل الملكة والمحاربة والشاعرة والحكيمة (الاطرقجي، 2002، صفحة 20)، وأخذت تشغل مساحات واسعة في الشعر الجاهلي، فقد وظف الشاعر الجاهلي ((قدراً كبيراً من أشعاره من أجل المرأة وعرض لوصفها والحديث عنها وهي في مختلف الأدوار التي تؤديها في الحياة الاجتماعية الجاهلية صورها حبيبة وزوجة وأماً وفتاة وأمة من الإماء

وتحدث عن وظيفتها وواجباتها في المجتمع، ورسم العواطف والمشاعر التي تحس بها ويحس بها الآخرون)) (الهاشمي، 1960، صفحة 22)، مجسداً صورة واضحة للمرأة في عصرها باختلاف أحوالها، وخير ما يدل على ذلك هو شعر المعلقات تلك التي لم تخل من ذكر للمرأة سواء أكان بافتتاح أو بوصفها في غرض من الأغراض كالغزل والمديح والهجاء وما إلى ذلك من أغراض وموضوعات تلهم الشاعر الجاهلي وتفجر قرائحه للبوح بأوصاف المرأة وشمائلها ومن ذلك ما قاله امرؤ القيس في التغني عجبته:

أفـــاطمُ مهـــلاً بعـــض هـــذا التـــدلّل وإن كنـــتِ قـــد أزمعـــتِ صـــرمي فـــأجملي

وعندما جاء الإسلام، فإنه أعز المرأة وأعلى شأنها ((وكانت نظرته إليها إنسانية، فقد ساوى بينها وبين الرجل، ودفع عنها اللعنة التي ألصقتها المعتقدات السابقة ... وعمل الدين الإسلامي على النهي عن التشاؤم والحزن لولادتها وحرم وأدها ...)) (الاطرقجي، 2002، صفحة 24)، ومنحها حريتها في التعليم وأنصفها في كل ما يتعلق بأحكامها وحقوقها.

أما في مجال الشعر فقد بقي أغلب الشعراء على نهجهم في العصر الجاهلي ولم يبتعدوا عن العرف السائد لديهم في الشعر، وذلك بافتتاح قصائدهم بذكر المرأة، لذا نجد المقدمات الطللية والغزلية عند عدد من شعراء صدر الإسلام مثل حسان بن ثابت وكعب بن زهير، إذ يقول في مقدمة اعتذارية للنبي (ص) (قميحة، 1989، صفحة 109):

بانـــت ســـعادُ فقلبـــي اليـــومَ متبـــولُ متـــيمٌ إثرَهَـــا لـــمْ يُفـــدَ مكبـــولُ

فالمعروف في هذه القصيدة أن الشاعر كتبها في مدح الرسول الكريم محمد (ص) والاعتذار له إلا إن الشاعر استهلها في ذكر محبوبته سيراً على نهج الشعراء الأقدمين ولتعظيم منزلة المرأة التي لم تعد موضوعاً لافتتاح القصائد فحسب، بل أصبحت موضوعاً مستقلاً لقصائد بعينها، وصارت تحتل قصيدة كاملة يكون موضوعها الغزل بنوعيه المادي والعذري، إن كثرة الشعر الذي قيل في المرأة وحب الشاعر العربي للكتابة في المرأة والتغني بصفاتها وشمائلها لم يكن أمراً عارضاً أو محض صدفة بل كان ((من التراث الروحي المتوارث والتربية التي درجوا عليها بحيث ندر في شعرائهم من لم يقل شيئاً في الغزل، كما ندر منهم من لم يحفظ قدراً منه)) (الهاشمي، 1960، صفحة المقدمة هـ).

وفي العصر العباسي فقد أثبتت المرأة مقدرتها في مجال الشعر فكرياً وعقلياً ونظمت في مختلف الموضوعات من غزل ورثاء ومديح وشكوى واستطاعت أن تضع بصمتها في عالم الشعر وأن تمارس حقها في الحياة الأدبية آنذاك، وقدرتها على الإفصاح عما يدور في داخلها من أحاسيس وعواطف بصدق ووضوح إذ كان ((الشعر من أشهى ضروب اللهو وأرقى فنون الثقافة في حياة الخاصة وفي الأوساط الثقافية ... فلم يكتفوا بتناشده في كافة المناسبات والأحوال وإنما جعلوه أجمل ما يتزين به ... وعبروا بالشعر وهو أحلى ما يدور في مجالسهم عن نزعاتهم واهوائهم)) (الاطرقجي، 2002، صفحة 273)، فقد كان دور المرأة أدبياً هو انعكاس لثقافة المجتمع وحضارته المنفتحة على ألوان المعارف والتلاقح الثقافي، وقد أبدعت فيما انتجت من أدب شعراً ونثراً.

أما صورة المرأة في أدب العصر الحديث فقد ظهر الاهتمام بها بشكل واضح، بل أصبحت المرأة مثار اهتمام رجال الثقافة والفكر بمختلف المجالات، إلا إن اهتمام الأدباء ولاسيما الشعراء منهم كان واضحا، فلا يكاد يخلو ديوان شعر حديث من قصيدة يتغنى فيها صاحب الديوان بالمرأة ونظرته لها ومنه ما قاله الشاعر علي محمود طه في المرأة من قصيدته (حواء) (طه، 2013، صفحة 487):

أأبغـــض حـــواء وهـــي التـــي عرفـــتُ الحنـــان لهـــا والرضـــى
وبـــاع بهـــا آدمُ خلـــده ولـــو لـــم يكـــن لتمنـــى لهـــا القضـــا

لذا نجد أن صورة المرأة في الشعر العربي الحديث قد اختلفت عن صورتها في الشعر القديم، إذ اخذت المرأة في هذا العصر تظهر بنمط مختلف عن الصورة التقليدية التي عرفت بها في الشعر العربي. وقد عبرت كثير من الأشعار عن ما آلت اليه صورة المرأة من تحولات حاصلة في الساحة الاجتماعية وتأثير هذه التحولات على الوعي العربي منها ما يتعلق بالرغبة في الحرية والتحرر والاستقلالية.

أسمه – حياته:

شاعر عباسي لقب بـ(ديك الجن الحمصي) وأسمه ((أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن يزيد بن تميم الكلبي الحمصي)) (أبو الفرج الأصفهاني، 1938، صفحة ج51/14)، وأصله من سلمية، أما عن نشأته فقد ((ولد عبد السلام في حمص سنة 161هـ/778م، وإليها نسب مع أن دارسيه يرجحون نسبته إلى سلمية)) (محسن، 1992، صفحة 11).

أما أسرة الشاعر فلم تذكر كتب الأدب والمصادر القديمة عنها شيئاً وافياً فالأخبار عنها كانت شحيحة والذي نعرفه عن أسرته الصغيرة أنه تزوج وكان يكنى بأبي محمد ثم فجع بأبنه رغبان فيما بعد ورثاه بأبيات موجودة في ديوانه (الحجي، د.ت، صفحة 24).

عاش الشاعر طفولة لا تختلف عن طفولة أقرانه وحياتهم الطبيعية آنذاك ويبدو أنه مال منذ طفولته إلى التردد إلى المساجد حيث المعلمين والمؤدبين ومجالس الدرس والعلم وذلك لأن أثر ذلك بين على آرائه وشعره اللذان ينبيان عن تحصيل وافر من العلوم المختلفة والمعارف.

والأمر في شبابه يختلف عن ما وصف به في طفولته بحسب ما نقلت لنا كتب التراث والأدب ان فترة شبابه كان لاهياً ماجناً باحثاً عن اللذة بمختلف أشكالها وربما حكموا عليه بسبب ما وجدوه في شعره من تطرق لهذه الموضوعات والخوف فيها على الرغم من أنه كتب شعراً في أهل البيت رثاءً ومدحاً وله شعر أيضاً في الحكمة والغزل العفيف، إلا أن ما قيل عنه من بحث وراء اللذة المادية قد يكون بسبب نزعته إلى التمرد ورفضه لمبادئ مجتمعه بمختلف مناحيها.

أما حياة الشاعر في كهولته ومرحلة الشيخوخة فلا تختلف كثيراً عن ذي قبل ولاسيما ان قتله لزوجته قد ترك فيه جرحاً عميقاً من الصعب أن تمحى آثاره مع الوقت بعد المكيدة التي دبرها له ابن عمه، ويعد أبو الفرج الأصفهاني من أوائل الأدباء الذين رووا مأساة ديك الجن في كتب (الأغاني)، إذ سرد أحداث القصة بصورة قريبة من الواقع (أبو الفرج الأصفهاني، 1938، صفحة ج55/14).

وقد تحدث عنه أيضاً ابن عساكر في كتابه (تاريخ دمشق) (ابن عساكر، 1996، صفحة ج82/56)، وابن خلكان في (وفيات الأعيان) (ابن خلكان، 1972، الصفحات ج184/3-185)، وداود الانطاكي في (تزيين الأسواق في أخبار العشاق) (الأنطاكي، 1993، صفحة 119)، و ابن رشيق القيرواني في (العمدة) (ابن رشيق القيرواني، 1955، الصفحات 219-220)، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب التراث من خبر أو معلومة عن الشاعر أو شعره ((وربما تأتت له هذه المنزلة من شاعريته العالية واحتلاله مكاناً هاماً بين أقطاب حركة التجديد الشعرية التي بدأت ببشار بن برد واستوت على يدي أبي تمام حبيب بن أوس الطائي)) (الحجي، د.ت، صفحة 60)، إلا أن تجديد ديك الجن كان على طريقة التمرد الوجودي والفني معاً.

المبحث الأول
المرأة في العصر العباسي
المرأة الأم

حظيت الأم بمنزلة مميزة عبر العصور المختلفة لفضلها ومكانتها وطبيعتها العاطفية التي تدفعها إلى الرحمة والشفقة، وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى عظيم مكانة الأم، فقد قال الله تعالى **{ووصينا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}** (سورة الأحقاف، الآية 15)، فقد قدس الإسلام الأم وجعل من الأمومة رابطة مقدسة تجمع الأسرة وتنشئتها تنشئة اجتماعية سوية، وقد تغنى الشعراء بالأم عبر العصور الأدبية وأشادوا بفضلها ودورها في الحياة الاجتماعية، وفي العصر العباسي ارتفعت مكانة الأم، وانبرى الشعراء يتخذونها موضوعاً لأشعارهم، وكانوا ((يميزون الوالدة ويخصونها بالإكرام، فالمرأة لم تكن ذات شأن حتى تصير أماً فيعلو مقامها)) (الاطرقجي، 2002، صفحة 21)، وبدأت تتضح سمات الأم وملامحها ((تبعاً لاختلاف الظروف وتباين النظرة اليها، وتباعد مواقف القائلين فيها، ولعل أهم الأغراض التي بدت فيها صورة الأم هي الرثاء والمديح والهجاء)) (الاطرقجي، 2002، صفحة 105)، وقد تناولها شعراء عباسيون كثر، واشادوا بمنزلتها وفضلها في تكوين الأسرة وتنشئة المجتمع ومنه ما قاله ابن الرومي في الأم (بسج، 2002، صفحة 205):

وإن الـــــذي تســـــترحم الأم أبنهـــــا بهـــا وبـــه لا شـــك أرحـــم راحـــم
ومـــــا الأم إلا أمـــــة فـــــي حياتهـــــا وأم إذا فـــــادت ومـــــا الأمُ بـــــالأمِمِ
و

وقال الشاعر مهيار الدليمي (الديلمي، 1314هـ، صفحة 171):

مـــن خيـــر قـــوم أبـــا وأكـــرمهم أمّـــاً أمـــــــــا عابـــــــــت الأب والأم

أما ديك الجن فلم نجد في أشعاره التي وصلت الينا ما يصرح به عن الأم سوى تغنيه بزوجته وحبيبته (ورد)، ربما لقلة الاخبار الواردة عن حياته والغموض الذي لف ظروف نشأته عدا بعض الإشارات التي تحدثت عن نشأته وسيرته بأنه كان يكنى بأبي محمد وأن له ولد يدعى رغبان رثاه بعد موته، إذ اتخذ الشاعر في الرثاء خطين هما الرثاء الاجتماعي والرثاء العاطفي، فنجده في النوع الثاني يرثي زوجته وغلامه وابنه واصدقاءه ويفجر في رثائهم عواطفه بكل صدق فيبيكهم بشعور صادق وحارق، أما الأم فلم نجد له شعراً فيها وإنما شغل معظم ديوانه في ذكر زوجته وحبيبته (ورد)، وهذا ما سيرد ذكره فيما سيأتي من موضوعات.

المرأة الزوجة

لقد حفل العصر العباسي بالشعر الذي تغنى بالزوجة والذي اكتنفته كثير من المشاعر المختلفة تبعاً للمواقف والاحداث التي تلم بالشاعر وظروف نشأته فضلاً عن ما اسبغته عليها مظاهر الحضارة والتمدن في ذلك العصر، فقد تنوعت أدوارها ولم تبق العنصر المتغزل بها فقط وانما ظهرت المرأة في كتابات الشعراء العباسيين بصور مختلفة ومنها المرأة الزوجة ((لقد كانت صورة الزوجة في الشعر بصورة عامة متأثرة إلى حد بعيد بالتيارات والاحوال الاجتماعية السائدة آنذاك)) (الاطرقجي، 2002، صفحة 124).

ولم يكن الزواج في الوقت ذاته العامل المثير لعواطف الأدباء وبالأخص الشعراء وذلك لاختزال المسافة بين الشخصين الحبيبين الذي يجرد الشعر من أبرز شروطه التي ترتبط بالخيال والشغف للقاء والتواصل بوصف الزواج واقعاً جديداً يحل محل المتخيل لدى الشاعر، لذا نجد اغلب الشعراء الذين تغنوا بالمرأة وكتبوا قصائدهم فيها انهم كتبوها في فترات الوجد العاطفي التي تسبق الزواج، ولم يضيفوا اليها شيئاً جديداً بعد الزواج، وكذلك الأمر بالنسبة لشاعرنا المتيم عبد السلام بن رغبان فإن قصة حبه مع (ورد) كادت أن تنتهي بالنسيان بعد تملكه (ورد) وزواجه منها لولا المأساة المروعة التي ظلت تتردد وتتناقل من جيل إلى آخر وهي حادثة مقتل زوجته وحبيبته (ورد)، إذ ربط بينهما حباً رائعاً جميلاً أشتهر بين العالمين عرف به القاصي والداني وصار مضرب أمثال أهل المدينة، وتوج هذا الحب بالزواج لكن قدرهما كان لهما بالمرصاد فالشاعر ((قتل جاريته الحسناء (ورد) حباً وغيرة عليها وجبل من بقايا جثتها المحروقة كاسه وكان ينشد بين شربة وبكائه أبياتاً من الشعر منها)) (محسن، 1992، صفحة 13):

أجريـــت ســـيفي فـــي مجـــال خناقهـــا ومـــــدامعي تجـــــري علـــــى خـــــديها
رويـــت مـــن دمهـــا الثـــرى ولطالمـــا روى الهـــوى شـــفتي مـــن شـــفتيها

وقد رثاها بقصائد كثيرة له، منها قوله في رثائها (الملوحي و درويش، 1960، صفحة 33):

أســـاكن حفـــرة وقـــرار لحـــدٍ مفـــارق خلـــة مـــن بعـــد عهـــد
أجبنـــي إن قـــدرت علـــى جـــوابي بحـــق الـــود كيـــف ظللـــت بعـــدي

فكم هو عظيم ذلك الوجع الذي يضرب أعماق الشاعر ويجعل مشاعره تنفجر بالحزن والبكاء اعترافاً منه بذنبه وإحساساً بالعذاب الذي يحل به فالندم مؤلم بعد فوات الأوان، ولاسيما أن شاعرنا ذو إحساس مرهف، فمشاعر الغضب والغيرة سيطرت على بصره وبصيرته، وجعلته على حافة الجنون ليرتكب جريمة ضد من ضمر لها عشقا وغيرة قاتلة، ومما قاله في رثائها أيضاً (محسن، 1992، صفحة 78):

قـــل لمـــن كـــان وجهـــه كضـــياء الشـــمس فـــي حســـنه وبـــدر منيـــر
كنـــت زيـــن الاحيـــاء إذ كنـــت فـــيهم ثـــم قـــد صـــرت زيـــن اهـــل القبـــور

فمن أبيات الشاعر أعلاه نلتمس أنه كان منغمساً بالحزن والهم ولاسيما في الابيات التي ورد فيها ذكر زوجه الضحية مفصحاً عن مقدار حسرته ولوعته بعد وفاتها وما لاقاه من لوم الناس له لفعلته هذه وبكائه عليها، فيقول في ابيات أخرى (الملوحي و درويش، 1960، صفحة 35):

يـــا دهـــر أنـــك مســـقي بكأســـهم ووارد ذلـــك الحـــوض الـــذي وردوا
والخلـــق ماضـــون والأيـــام تتـــبعهم نفنـــى جميعـــا ويبقـــى الواحـــد الصـــمد

ففي البيتين السابقين يخاطب الشاعر الدهر ويخبره بان لا يفتخر لأنه سقى الاحباب من كأس الردى، وذلك لأنه سيسقى من الكأس نفسه يوما ما لا محالة، تلك هي سنة الله، يمضي خلقه وتفنى بعدهم الأيام ويفنى الناس جميعاً ويبقى وجه الله الواحد الصمد.

المرأة الحبيبة

إن من يستعرض نتاج الأدباء شعراءً وكتاباً في الشرق والغرب قديماً وحديثاً فلا بد أن تصيبه الدهشة للكم الهائل من القصص والشعر والروايات التي اتخذت من المرأة موضوعاً وفكرة لها سواء أكانت هذه الكتابات منصفة للمرأة أم فيها نوع من الظلم، وكما نعلم أن العلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة حب وكراهية في آن واحد وراحة وعذاب وقوة وحنان ولذة وألم إلى غيرها من المتناقضات التي تميز العاطفة بينهما والتي سميت على مر الأزمنة والدهور بالحب أو الرغبة بالامتلاك إن المرأة في أي مجتمع ترتفع أو تنحدر بارتفاع المجتمع أو انحداره ((وما لا جدال فيه أن المرأة كانت وما تزال ملهمة الشعراء تفجر فيهم ينابيع عاطفة الشوق المشبوبة ... والشعر هو لغة الحب والعاطفة فهو يرق ويجمل باسم الحبيبة ويستهوي اليه نفوس المتلقين إذا كان غزلا أكثر من سائر الموضوعات الأخرى)) (منسي، د.ت، الصفحات 29-30).

وقصة شاعرنا ديك الجن هي عبارة عن احداث واقعية تاريخية تميزت وانفرد بها شاعرنا الملهم، ما جعلها محط اهتمام للناس بتناقلها عبر الأجيال في أمات الكتب وبطون المصادر بتعدد الروايات التي تناولتها، والتي تتمحور جميعها حول الفتاة التي أحبها وكلف بها حد الجنون ثم تزوجها وبعد ذلك أنهى حياتها على يديه نتيجة لغيرته التي أعمت بصره وبصيرته فيقول في حبها (محسن، 1992، صفحة 128):

أتـــاني هواهـــا قبـــل أن أعـــرف الهـــوى فصـــــادف قلبـــــاً خاليـــــاً فتمكنـــــا

وهنا إشارة واضحة إلى أنه على الرغم من مجونه وتعدد علاقاته إلا إنه لم يعرف الهوى إلا عندما صادف (ورداً) وأحبها فتمكنت من قلبه وسيطرت على عواطفه وأحاسيسه.

وفي أبيات أخرى يصف شاعرنا شوقه إلى (ورد) وحنينه إليها بعد أن رحلت إلى ديار أخرى فيقول (محسن، 1992، صفحة 129):

أمـــالي علـــى الشـــوق اللجـــوج معـــين إذا نزحـــــت دار وخـــــفَ قطـــــينُ
إذا ذكـــروا عهـــد الشـــام اســـتعادني إلـــى مـــن بأكتـــاف الشـــام حنـــينُ

وهو في البيتين السابقين يستجير بأحد يساعده في تحمل الشوق اللجوج إلى الدار التي نزح ساكنوها ورحلوا بعيدا.

ويقول في بيت آخر واصفاً شدة الحب (محسن، 1992، صفحة 130):

ســـمة الصـــبابة زفـــرةٌ أو عبـــرةٌ متكفـــل بهمـــا حشَـــا وشـــؤونُ

وفي البيت السابق يبين الشاعر علامات الحب الشديد ويصفها بأنها زفرة يصعدها القلب ودمعة تذرفها العين ملخصاً شدة الشوق بهاتين العبارتين وكيف لا وهو أشعر الشعراء العشاق وأكثرهم رهافة حس ذلك ما دفعه إلى قتل عشيقته وزوجه غيرة وحباً.

المبحث الثاني

الصورة البصرية في شعر عبد السلام بن رغبان

للحاسة البصرية أهمية مركزية في الدراسات الأدبية والنقدية، فأخذت تهتم بها واعطتها تلك الأهمية في قراءة الأشياء ومعرفة دلالاتها ذات القيمة البالغة في إيصال الأفكار عن طريق تماهي المرئي مع اللغة الشعرية في النصوص واشتراكهما معاً في إيصال المعنى إلى القارئ بشكل ذات دلالات جمالية وبسبل مختلفة سواء أكانت شفاهية أو كتابية.

لذا فحاسة البصر هي ((من أهم الحواس وأقربها إلى تحليل الواقع وإدراك مكوناته الدقيقة ويقدم الشاعر فيها تصوراً جديداً برؤية جديدة يكون هو بطلها الأول والأخير، فالشاعر بعيد ما يراه من صور في قالب مختلف تألفه النفس وتجذب اليه وتتأثر به أيما تأثير)) (العقايدة، 2017، صفحة 83).

فالنص الشعري يتجلى بالصور البصرية ويتشكل فضاؤه بها وهي تكمل معنى النص بجميع اشكالها وعن طريقها يستطيع القارئ الوصول إلى عواطف الاديب ومشاعره عند رؤية الصور الظاهرة في فضاء نصه ممثلة بحاسة البصر التي تكشف عن دواخل الشاعر وما يكنه من احاسيس وأفكار.

فالصورة البصرية تتعامل مع المحسوسات حينما تبرز لنا منظومة الفنان وعمله الفني وما ترسمه لنا يقظة حواسه الخيالية، وهي ((التعبير الذي ينقل شعور الشاعر وافكاره معتمداً على التجسيد)) (عليوي، 2019، صفحة 408).

يوظف الشاعر عبد السلام بن رغبان الصور البصرية في ديوانه ليكشف عن قدرة إبداعية وخيال جامع في إظهار ما يراه عبر تحفيز الخيال الذي يمنحه وعي وإحساس بالموضوع الذي يريد التعبير عنه، ففي ابيات له يصف النساء فيها يقول (محسن، 1992، صفحة 53):

فـــــوق العيـــــون حواجـــــب زجُ تحـــــت الحواجـــــب أعـــــينٌ دعـــــجُ
ينظـــرن مـــن خلـــل النقـــاب ومـــن تحـــت النقـــاب ضـــواحك فلـــجُ
وإذا نظـــرن رمقـــن عـــن مقـــل تســـبي العيـــون فحشـــوها غـــنجُ

وفي الابيات أعلاه تتجلى الصورة البصرية عن طريق تصوير الشاعر للنساء وهن يرتدين النقاب وينظرن من خلاله فيصف أعينهن ويشبهها بالسهام وينقل لنا صورة عن لون العين وشدة سوادها ويصف شكلها كل هذه الاوصاف هي صور بصرية ينقلها إلينا الشاعر لإضفاء عنصر التشويق واستدعاء خيال المتلقي لإثارة انتباهه وتقريبه من الأحداث ((فكلما كانت الصورة غنية بمعانيها ومشاعرها واحاسيسها التي قصدها الشاعر وصلت إلى المتلقي من دون عناء)) (عليوي، 2019، صفحة 411).

يستمر الشاعر في نقل صورة النساء اللواتي رآهن فيقول:

وإذا ضـــحكن ضـــحكن عـــن بـــرد عـــذب الرضـــاب كأنـــه ثلـــجُ
وإذا نـــزعن ثيـــابهن تـــرى فـــوق المتـــون ذوائـــب ســـبجُ
ووافـــين مكـــة للحجـــيج فلـــم يســـلم بهـــن لمســـلم حـــجُ

يكمل الشاعر في الأبيات أعلاه وصف ما بدأ به من أوصاف لأشكال النساء اللاتي صادفنه فيصفهن عندما يضحكن بأن اسنانهن بيضاء كالبرد، وإذا خلعن ملابسهن تظهر خصلات من شعرهن فوق اكتافهن مشبها إياها بالخرز الأسود عندما ينتظم، وفي البيت الثالث يبين الشاعر أن تلك النساء من شدة جمالهن وأوصافهن البهية التي يتمتعن بها فإنهن افسدن على المسلمين حجهم.

مما تقدم نستطيع القول أن الشاعر وظف صوره البصرية، بما يمكن القارئ من استنباط الصورة الإبداعية في نسيج النص الشعري وربطها بعلاقة جدلية تتناسب مع حالة الشاعر الوجدانية، وما يصوره من موجودات تصويراً دقيقاً تلك هي وسيلة الشاعر في تكوين نصه الإبداعي وايصاله إلى المتلقي بما يتضمنه من صدق العاطفة ورهافة الحس .

الصورة السمعية في شعر عبد السلام بن رغبان :

لم يخل ديوان ديك الجن من الصور السمعية التي تستمد مادتها عن طريق المفردات السماعية التي يلحظها القارئ في شعره فالصورة السمعية عند ديك الجن الحمصي تعد واحدة من ابرز العناصر البلاغية

التي تميز شعره وتظهر تفرده الحسي والجمالي، ويقصد بالصورة السمعية استخدام الألفاظ أصواتاً طبيعية كصوت الريح أو الماء أو بشرية كالأنين والضحك والصراخ أو صناعية كصليل السيوف أو دوي الحرب، وهنا ((تظهر أهمية الصيغة الشعرية في كونها صوتية، إذ إن الشاعر لا ينطق شعره فحسب إنما ينغمه بنغم ألفاظه وعباراته لينقل سامعيه من فضاء اللغة الاعتيادية إلى كفة الموسيقى ويرفعهم من عالمهم الحسي إلى عالمه الشعري)) (ضيف، 1962، صفحة 113).

توظيف الصورة السمعية في شعر ديك الجن :

التكثيف الشعوري والانفعالي:

ديك الجن شاعر عاطفي وانفعالي، يستعمل الصوت ليعزز المشهد العاطفي في القصيدة، فكثيراً ما يعبر عن حالات الحزن واللوعة عن طريق صور سمعية مثل الانين والتنهد والصراخ وهي تدل على الألم والحسرة وغالبا ما ترتبط برثاء الحبيبة أو الشعور بالندم وفي ذلك يقول الشاعر:

أمـــا والله لـــو عابيـــت وجـــدي إذا اســـتعبرت فـــي الظلمـــاء وحـــدي
وجـــد تنفســـي وعـــلا زفيـــري وفاضـــت عبرتـــي فـــي صـــحن خـــدي

ففي هذه الابيات التي تفيض شجنا وعاطفة وتحمل طاقة شعورية عالية يبين الشاعر ما يعانيه من وجد ولوعة حينما يبكي في الليل وحيداً وهو يكابد شدة الشوق والحزن وهو شوق الى المحبوبة، وفي لفظة (استعبرت) التي تدل على البكاء فإن الشاعر لم يصرح بالبكاء مباشرة بل استعان بلفظة (استعبرت) للدلالة على بكائه ولاسيما انه استعمل تعبير (أما والله) الذي يحمل نبرة أسى واحتجاج وكأنه يناشد السامع أما المحبوب ليتصور مقدار الوجع وينقل له صورة سمعية واضحة فيها من الاسى والحزن ما يكفي لتحريك عواطف السامعين ((نظراً لما تشكله البنية السمعية للصورة من ابراز تضافر مع التصور الذهني، وذلك أن المعنى يقوم على التخيل في ذهن المتلقي)) (حسين و ابراهيم، د.ت، صفحة 630)، وفي البيت الثاني تحديداً يركز الشاعر على الأصوات وما تنقله من مشاعر دون الاغفال عن التناسق الموسيقي والجرس الذي يعمم البيت، فالزفير هو صوت النفس الخارج من الجسم بحرارة وهي دلالة على شدة الحزن والتنهد.

وفي أبيات أخرى يقول فيها (محسن، 1992، صفحة 88):

وأصـــفر قمـــة وحجـــاج عـــين فتحســـبه تكحـــل مـــن وروس
إذا بعثـــت ســـمعتَ لهـــا زهـــاء وجهـــورة كجهـــورة القســـوس

في الأبيات أعلاه تتداخل الصورة البصرية مع الصورة السمعية، إذ يشير الشاعر في البيت الأول إلى اللون الأصفر، وهو احتمال كبير أن يكون إشارة إلى كأس الخمر، ولاسيما أنه اشتهر بوصف مجالس الشراب و (حجاج عين) هو تعبير فني يدل على لمعان في جزء يشبه لمعان العين فيشبه الكأس بلون العين، أما (الورس) فهو بنات يستخرج منه صبغ أصفر، ويريد الشاعر هنا أن السائل في الكأس كأنه يتكحل بالكحل الأصفر المصنوع من هذا الشراب، مما يضفي عليه جمال وفتنة، إلا إن هذه الصورة البصرية تمهد للصورة السمعية التي وردت في البيت الذي يليه، فيجسد الشاعر الخمرة كأنها كائن ينشد، فالزهاء هو الصوت الحاد، أي أن الخمرة عندما تصب أو تحرك، فإنها تحدث أصواتاً تشبه صوت القسوس وهم رجال الدين، والمعروف عنهم أن تلاوتهم وانشيدهم تحدث أصواتا عالية في الكنائس، وتلك صورة سمعية واضحة تثير خيال القارئ بتوظيف الشاعر للمحسوس كالخمر والكحل والتراتيل، وهو أنموذج جلي على إبداع الشاعر في دمج الحواس للتعبير عن عواطفه.

ومما تقدم يمكن أن نعد الشاعر ديك الجن من أبرز الشعراء العباسيين الذين برعوا في توظيف الصور الحسية في شعرهم، تناغماً مع حالة الحب المتأجج في علاقته مع ورد في البداية وانتهاء بالحالة المأساوية التي حلت به بعد مقتلها فجاءت قصائده نابضة بالحياة، مترعة بالألوان والأصوات والمشاعر الجياشة.

خاتمة البحث

بعد الخوض في رحلة البحث لصورة المرأة في شعر عبد السلام بن رغبان، خلص البحث إلى النتائج الآتية :

1- تختلف صورة المرأة في الأدب العربي إذ تطورت عبر العصور، تبعاً للسياق الثقافي والاجتماعي والسياسي.

2- مثل الشاعر ديك الجن انموذجاً فريداً في الشعر العربي عن طريق تجربته الشعرية إذ جمع بين العاطفة العنيفة والتجربة الشخصية الحزينة، فظهر تأثير ذلك في شعره بشكل صريح ومكثف.

3- تعددت صورة المرأة عند الشاعر فنجد المرأة الزوجة تلك هي (ورد) الفتاة التي أحبها حباً شديداً وأسلمت على يده ثم تزوجها، والمرأة الحبيبة التي تمثل الجمال المطلق والصفاء العاطفي وأخيراً المرأة الخائنة بعد حادثة مقتلها، إذ تتحول إلى مصدر ألم وانهيار للثقة.

4- تمثل المرأة في شعر ديك الجن تجربة إنسانية مركبة ومأساوية، تجمع بين العشق والخذلان وبين الوله والندم ما يجعل شعره من أصدق التعبيرات الشعرية عن علاقة الإنسان بالحب والمرأة.

5- وظف الشاعر صورة الحسية (البصرية والسمعية) من تجربة شخصية عميقة وأليمة في الوقت ذاته، فجاءت تلك الصور نابضة بالحياة والانفعال وتنوعت بين الجمالية والدرامية.

6- ان الشاعر ديك الجن الحمصي ليس مجرد شاعر غزل أو مبدع فني في عصره، بل هو حالة شعرية استثنائية، إذ امتاز شعره بصدق الشعور وحدة التعبير وجرأة الطرح مستمداً ذلك كله من عمق التجربة الإنسانية ما جعله من أبرز الأصوات الشعرية التي خرجت عن التقاليد المألوفة في العصر العباسي.

المصادر :

1. ابن خلكان. (1972). وفيات الاعيان (المجلد ط2). (تحقيق : احسان عباس، المحرر) القاهرة.
2. ابن رشيق القيرواني. (1955). العمدة في محاسن الشعر وآدابه (المجلد ط2). (تحقيق : محي الدين عبد الحميد، المحرر) مصر: مطبعة السعادة.
3. ابن عساكر. (1996). تاريخ دمشق (المجلد ط2). (تحقيق : عمر بن غرامة العمروي، المحرر) بيروت: دار الفكر.
4. أبو الفرج الأصفهاني. (1938). الأغاني (المجلد ط1). القاهرة: دار الكتب المصرية.
5. أحمد حسن بسج. (2002). ديوان ابن الرومي (المجلد ط2). بيروت: دار الكتب العلمية.
6. أركان حسين، و انور ابراهيم. (د.ت). الصورة السمعية والمرئية في أدب ابي العيناء. مجلة الجامعة العراقية(ج3).
7. انتهاء عباس عليوي. (2019). الصورة البصرية في شعر الفرزدق. مجلة كلية العلوم الاسلامية.
8. انطوان محسن. (1992). ديوان ديك الجن الحمصي (المجلد ط1). بيروت: دار الكتاب العربي.
9. بشرى سلام. (2016). حكايات المال في كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي - دراسة في الازمة والحل. رسالة ماجستير، جامعة بغداد، بغداد.
10. خديجة خلف القعايدة. (2017). انماط الصورة في شعر المرأة العباسية. اطروحة دكتوراه، جامعة مؤتة، عمان.
11. داود الأنطاكي. (1993). تزيين الاسواق في اخبار العشاق. (تحقيق : محمد التونجي، المحرر) بيروت: عالم الكتب.
12. شوقي ضيف. (1962). في النقد الأدبي (المجلد ط9). مصر: دار ناشر.
13. عبد المعين الملوحي، و محي الدين درويش. (1960). ديوان ديك الجن الحمصي (المجلد ط1). حمص: مطابع الفجر الحديثة.
14. علي الهاشمي. (1960). المرأة في الشعر الجاهلي (المجلد ط1). بغداد: مطبعة المعارف.
15. علي محمود طه. (2013). ديوان جدارية. مؤسسة هنداوي.

16. فوزي ثعبان منسي. (د.ت). المرفأ والشراع (المجلد ط1). الجامعة المستنصرية، كلية التربية الأساسية.
17. مظهر رشيد الحجي. (د.ت). ديوان ديك الجن الحمصي (المجلد ط1). سوريا: اتحاد الكتاب العربي.
18. مفيد قميحة. (1989). ديوان كعب بن زهير، شرح ودراسة (المجلد ط1). السعودية: دار الشواف للطباعة والنشر.
19. مهيار بن مرزوية الديلمي. (1314هـ). ديوان مهيار الديلمي (المجلد ط1). لبنان: المطبعة الأنسية.
20. هبة مصطفى جابر. (2018). صورة المرأة في الشعر الجاهلي. مجلة الدراسات اللغوية والانسانية.
21. واجدة الاطرقجي. (2002). المرأة في أدب العصر العباسي (المجلد ط1). الامارات: دار زايد للتراث والتاريخ.